اللينينية وأزمة الماركسية الراهنة

د. اسماعيل صبري عبدالله

يلح دعاة الرأسمالية في الحديث عن ازمة الماركسية المعاصرة ، ويقع من الاحداث ما يظهر بصدده الخلاف بين الماركسيين كأعتى ما يكون الخلاف ، وتبدو الامور بشكل يوحي بأنه ليس هناك «حقيقة ماركسية» واحدة . وحين تتعدد الحقيقة تهتز الثقة بها . وهكذا يشيع الاحساس «بالازمة» ويذيع الحديث عنها حتى نكاد أن ننسى الواقع الاساسى لعالمنا المعاصر الا وهو الانتشار الواسع للفكر الماركسى . فأكثر من ثلث البشرية يعيشون فى ظل الماركسية . وكل ثورى يناضل ضد القهر والاستغلال يجد فيها مفاتيح أساسية لقضايا نضاله . بل ان خصوم الماركسية أنفسهم قد تأثروا بها ، حتى لقد أصبحت بعض المفاهيم الماركسية التى كانت تعتبر حتى الثلاثينات من هذا القرن الغازا او هرطقة، قد غدت مسلمات شائعة . ويكفى أن نذكر مثلا على ذلك : **طبيعة الاستعمار كظاهرة استغلال اقتصادى ، الصراع الطبقى والطبيعة الطبقية للاحزاب السياسية ، التطور المستمر كجوهر للطبيعة والمجتمع .. الخ** . ان وضع الامور فى نصابها يقتضى أن نؤكد أولا الظاهرة الاساسية وهى انتشار الفكر الماركسى ، وهذا التأكيد لا ينفى ضرورة وجود أزمة ، ولكنه يضعها موضعها الصحيح من حيث انها « أزمة نمو » وليست « ازمة اضمحلال » ، وهى على اية حال ليست أول أزمة واجهتها الماركسية ، كفكر وكحركة ثورية .

ولكن ما هى مظاهر تلك الازمة ؟ هناك اولا تلك المجموعة من الافكار التى يقول اصحابها **بتقادم الماركسية** على تفاوت فى تقدير ذلك التقادم . وفى رأس قائمة تلك الافكار نجد القول بأن الماركسية كتفسير للمجتمع نتاج للقرن التاسع عشر ، عصر الالات التجارية والرأسمالية الشابة فى أوروبا ، وهى كنظرية للحركة الثورية لم تنجح على أية حال الا فى المجتمعات التى لم تكتمل بها الثورة الصناعية . وبالرغم فيما بين القولين من تناقض ، تستمر النغمة السائدة فى هذا اللحن أن الماركسية بوجهيها عاجزة اليوم عن فهم العالم المعاصر فى المجتمع الصناعى المتقدم ، وعن الاحاطة بأبعاد حركة التحرر العارمة فى العالم الثالث المتخلف . وفى السنوات الاخيرة ، أصبح « الطبق المفضل » عند أصحاب هذه الاتجاهات هو « الثورة العلمية والتكنولوجية » التى تغير جذريا كل شىء فى حياة الناس . ومن هنا الحديث المتكرر عن أن الاحداث قد « **تجاوزت** » الماركسية ، وقد آن للفكر البشرى بدوره أن يتجاوزها . وأبهت صورة فى هذه المجموعة من الاتجاهات هى الرأى القائل بأن الماركسية كفلسفة لها حدودها التاريخية ، وكنظرية للحركة الثورية تحتاج الى اعادة نظر كاملة يكون حجر الزاوية فيها ، بروز دور المثقفين وتضاؤل شأن الطبقة العاملة . كل ذلك لان « الثورة العلمية

والتكنولوجية » تحدث أثرين هامين • فهى من ناحية نتاج لعمل المثقفين ، وهى من ناحية أخرى تجعل الجزء الاهم من العمل الانتاجى بيد مثقفين (هم المهندسون وغيرهم من الفنيين الذين يديرون الالات الالكترونية الحديثة) • وفى هذا الاطار يصبح جموع العمال اليدويين — فى هذا الرأى — مرتبطين بأسلوب انتاج متخلف ، وبالتالى عاجزين عن أن يلعبوا دور الطليعة ويتحولون الى قوة محافظة شأنها فى ذلك شأن الحرفيين فى القرن الماضى • وفى الطرف المواجه لتلك الاتجاهات نجد طائفة أخرى من الاراء التى تتهم الاحزاب الشيوعية بالتخلى ولو جزئيا عن الماركسية وتنادى بالعمل الثورى الحقيقى لتحطيم الدولة والمجتمع، والتى يحلو لاصحابها أن يسموا **اليسار المتطرف** • وهم أحيانا ينتسبون الى « ماوتسى تونج » — بغض النظر عن مدى التزامهم بتعاليم الزعيم الصينى — أو يفتشون فى تاريخ الماركسية عن كل من اختلف معهم لينين من « روزا لوكسمبورج » الى « تروتسكى » ، او يتخذون من نضال « جيفارا » الفدائى علما يحاولون أن ينقلوا فى ظله حرب العصابات من ادغال امريكا الوسطى الى دهاليز الجامعات فى أوروبا الغربية ، أو يحاولون تجديد تراث الحركة الفوضوية • وبين هذه الاتجاهات المتضاربة تقف مجموعة الاحزاب الشيوعية وبينها من الخلافات ما أصبح معلوما مشهورا ينال من وحدة الحركة الثورية فى العالم ومن قوتها رغم كل محاولات التأكيد على ضرورة تلك الوحدة •

والامر الغريب هو أن لينين قد واجه فى عنفوان حياته النضالية وقبل ثورة أكتوبر ازمة مماثلة ، فبعد التقدم فى العلوم الطبيعية واكتشاف ان الذرة ليست أصغر مكونات المادة ، بل انها تتكون بدورها من الكترونات ، وأن المادة بالتالى ليست الا صورة أخرى للطاقة ، وبعد اكتشاف الطاقة الكهربائية واستخدامها واختراع المحرك ذى الاحتراق الداخلى واستخدام منتجات البترول ، ظهرت مجموعة من النظريات الفلسفية تحاول تفنيد الماركسية باسم مكتشفات العلم الحديث ، أى باسم « الثورة العلمية والتكنولوجية » ، اذا اردنا الترجمة الى لغة عصرنا الراهن • وظهر من بين الماركسيين اتجاه يسلم بأنه لابد من اعادة النظر فى الماركسية ، لابد من « مراجعتها » كما قال « برنشتين » الذى اخترع التعبير ذاته ، حين اكد أن الاشتراكية ليست الا مثلا أعلى مستوحى من الاخلاق يفتقد الاساس العلمى • وفى الوقت ذاته ، وربما كرد فعل لتلك الاتجاهات ، نشطت الدعاوى المنادية بأن الثورة هى « العمل الثورى المباشر » من اضراب لمجرد الاضراب ، الى تخريب للمؤسسات الرأسمالية ، الى اغتيال لرجال السياسة الرجعيين • وتمثل ذلك فيما سمى « بالنقابية الثورية » والحركة الفوضوية وصورتها القصوى « الاتجاه العدمى » •

أما الاحزاب الاشتراكية فقد كانت مسرحا لصراع رهيب بين دعاة التصالح الطبقى باسم « الاصلاحية » ، وبين الاتجاهات الثورية الحقيقية التى بدأت تشدد قواها بعد ثلاثين عاما من المذابح التى تلت هزيمة « كوميونة باريس » فى سنة ١٨٧١ •

لكل ذلك ينساق الفكر بالضرورة الى اللينينية حين تشغله معالم الازمة الراهنة • أليس لينين القائد الذى حققت الثورة تحت قيادته اعظم انتصاراتها قاطبة ، وعبرت البشرية خطواتها الحاسمة من مجتمعات الاستغلال الطبقى الى مجتمع القضاء على الاستغلال ؟• ولكن شر ما يمكن ان يصيب اللينينية هو ، بالدقة ، ان نبحث فيها عن حل مباشر لمشكلات اليوم • انها ليست « مجموعة من الوصفات » القابلة للتطبيق المباشر علاجا لكل الادواء فى كل العصور وكل البلاد • ان أعظم انكار لفكر لينين ليتمثل فى البحث فيما قاله لينين قبل نصف قرن عن « وصفة » لحل مشكلة فى الثلث الاخير من القرن العشرين ، لان فى ذلك الغاء للتاريخ ورفضا لحقيقة التطور • وان أسوأ تمجيد للمفكر الثورى العظيم لهو ذلك المنهج الذى يتناول كتاباته بطريقة « الشرح على المتون » • وعلى العكس فان اعظم تحية للينين فى الذكرى المئوية لمولده لهى محاولة استيعاب منهجه فى معالجة مشكلات عصره ، لممارسة نفس المنهج فى معالجة مشكلات عصرنا • فجوهر الماركسية فى النهاية هو كما قال لينين نفسه ، ذلك المنهج الجدلى الذى يشكل أداة رائعة للمعرفة • والمعرفة هى وحدها الاساس الصلب للتغيير الثورى الصادق •

صورة العالم فى عصر لينين

من ماركس الى لينين :

يحلو لبعض خصوم الماركسية أن يقولوا ان الفرق بين « ماركس » و « لينين » ينحصر فى أن الاول فكر ، والثانى دبر ونفذ • ولكن الواقع أن كلا الرجلين اشتغل بالفكر والعمل الثورى فى نفس الوقت ، ولا غناء فى المقارنة بينهما • وانما المهم هو المقارنة بين عصريهما • ذلك أن صورة العالم فى عصر لينين كانت تختلف اختلافا عميقا عنها فى عصر ماركس وانجلز ، وعبقرية لينين تتمثل فى الدقة فى ادراكه للجديد فى عصره وأعماله الخلاقة للمنهج الماركسى فى تفسير هذا الجديد تمهيدا لتغيير وجه العالم :

١ ـ كانت الرأسمالية فى أوروبا الغربية ، فى **عصر ماركس** ، فى عنفوان شبابها تملؤها الثقة فى المستقبل ، تؤمن ايمانا شديدا بفضائل المنافسة الحرة وخطر تدخل الدولة . وقد نجحت بالفعل فى فرض « الحرية الاقتصادية » فى الداخل ، فصفت « الطوائف الحرفية » ، والغت كل احتكار قانونى يستند الى سلطة الدولة ، وقضت على النظام الاقطاعى ، وقررت لرقيق الارض السابقين « حرية العمل » ليعملوا فى صناعاتها النامية . **وفى عصر لينين** كانت « المنافسة تقتل المنافسة » ، كما قال ماركس . وانتهى الصراع المحموم بين الرأسماليين الى نشأة عدد لا يستهان به من الاحتكارات القوية ، **اصبحت الرأسمالية فى عصر لينين رأسمالية احتكارية تحد من المنافسة وتقيد « حرية التجارة » .**

٢ ـ وكانت الرأسمالية ، **فى عصر ماركس** تسعى للسيطرة على بلدان من آسيا وأفريقيا لتضمن موارد للمواد الاولية بثمن بخس واسواقا للمنتجات الصناعية بمنأى عن المنافسة . **وفى عصر لينين كانت الشركات الرأسمالية الكبرى والبنوك قد تراكمت لديها رؤوس أموال ضخمة رأت انه من الارجح لها ان تستثمرها خارج بلادها ، فبدأت دول أوروبا الغربية لا تقنع بتصدير السلع بل تصدر كذلك رؤوس الاموال .** واشتد السباق الاستعمارى بينها حتى تم لها اقتسام الكرة الارضية (حتى الصين التى كانت أكبر من أن تترك لسيطرة دولة واحدة ، فاتفقت أوروبا على أن تشترك فى استغلالها باسم سياسة الباب المفتوح) . وترتب على ذلك أن أى توسع جديد لدولة رأسمالية لابد أن يتم على حساب دولة رأسمالية اخرى ، ومن هنا تكونت الاحلاف فيما بينها وغدت الحرب الاستعمارية حربا عالمية .

٣ ـ وفى **عصر ماركس** ، كان للرأسمالية بقية من دور ثورى يتمثل فى العداء للنظم الاقطاعيةفى أوروبا الشرقية ، حتى وان فترت حدة ذلك العداء . فالرأسمالية كانت تريد أن تكون نظاما عالميا ، وكانت تريد أساسا أن تسود أوروبا وأن تزيل كل العقبات فى طريق تلك السيادة . ثم كان تعاظم الحركة الثورية للطبقة العاملة التى تمثلت اولا فى الاضرابات وغيرهـا من صور الصراع الاقتصادى ، ثم حاولت أن تستفيد من ثورة ١٨٤٨ البورجوازية فى عدد من الدول الاوروبية ، ثم وصلت الى حد الثورة الاشتراكية واقامة حكومة شعبية فى باريس سنة ١٨٧١ . وازاء خطر الاشتراكية **أصبحت الرأسمالية ، فى عصر لينين ، قوة محافظة تدعم النظم الاستبدادية فى شرقى اوروبا ، وتعتمد فى الانتشار هناك على التسرب فى حماية الاقطاع وتقاسم ثمار الاستغلال مع الملوك والاقطاعيين .**

برنشتاين (١٨٥٠ ـ ١٩٣٢)

اشتراكى ديمقراطى ألمانى ، كتب سلسلة من المقالات بين عامى ١٨٩٧ و ١٨٩٨ تحت عنوان « مشكلات الاشتراكية ، وواجبات الاشتراكى الديمقراطى » راجع فيها الاسس النظرية للماركسية فى الفلسفة والاقتصاد السياسى والاشتراكية العلمية ، وقد كان شعاره الايديولوجى « العودة الى كانت » منكرا امكانية ان تكون هناك اشتراكية « علمية » قائلا ..

ان الاشتراكية فى جوهرها فكرة أخلاقية ، كذلك رفض دكتاتورية البروليتاريا والصراع الطبقى . وقد تخصص بليخانوف فى نقد افكار برنشتاين على اثر تسربها الى روسيا .

٤ ـ ونجحت الرأسمالية ، أيام ماركس ، فى فرض مبدأ حرية التجارة الدولية فى أوروبا الغربية على الاقل ، وكان معنى ذلك توحيد السوق الدولية الى حد بعيد . وفى ظل سوق واحدة تكون درجة النمو الاقتصادى واحدة فى مختلف أجزاء الدولة . ولكن انتشار الرأسمالية فى شرقى اوروبا ، بطريقة جزئية ودون تغيير شامل فى المجتمع ، فى الوقت الذى نمت فيه احتكارات كبرى فى غربيها ، أدى الى تفاوت فى النمو بين دول اوروبا . وهكذا غدا **الطابع الاساسى للرأسمالية ، فى عهد لينين ، هو ذلك النمو غير المتكافىء .**

٥ ـ وفى حين كان الغزو الاستعمارى الاوروبى لا يصطدم ، فى عصر ماركس ، الا بمقاومة ضعيفة من نظم قبلية او اقطاعية ، **اخذ عدد من شعوب المستعمرات ، فى عهد لينين ، يناضلون ضد السيطرة الاستعمارية بقيادة الرأسمالية المحلية الناشئة التى كانت تريد لنفسها محلا تحت شمس الرأسمالية العالمية .**

٦ ـ لقد مات ماركس ، والحركة العمالية فى اوروبا تعانى آثار النكسة الرهيبة التى تمثلت فى سقوط الحكومة الثورية لكوميونة باريس وما تلاه من مذابح ذهب ضحيتها فى العاصمة الفرنسية اكثر من تسعين ألف شخص . وانتشر البطش والارهاب ضد العمال فى مختلف بلدان اوروبا . **اما فى عصر لينين ، فقد اشتد نضال الطبقة العاملة** ونجحت فى عدد من الدول فى انتزاع الاقرار بشرعية التنظيم النقابى . كما نمت الاحزاب الاشتراكية ونجحت فى الوصول الى مقاعد البرلمان . وأخذت الرأسمالية الاحتكارية تحاول ـ بعد الارهاب ـ شراء بعض فئات العمال ورشوة قادتهم ، وانعكس ذلك فى بلبلة عميقة من

الناحية الايديولوجية سادت الدوائر الاشتراكية فى مستهل القرن العشرين ، وهددت بتصفية الفكر الثورى فى صفوف المناضلين .

معنى اللينينية

فماذا فعل لينين ازاء كل تلك التطورات ؟ ان اللينينية ، من حيث هى نظرية ثورية ، هى التحليل العلمى لعالم أوائل القرن العشرين والتحديد العملى لاسلوب التغيير الثورى فى ظروف تلك الفترة ، وقد تمثلت مساهمة لينين العظيم ، الذى يبرر قرن اسمه باسم ماركس ، والحديث عن الماركسية اللينية ، فى عدد من الاعمال النظرية الاساسية :

١ ـ لقد حلل « لينين » الرأسمالية الغربية فى عصره تحليلا عميقا ، واثبت بأن طابعها الاساسى اصبح الاحتكار ، وان احتكارات الصناعة قد امتزجت بالبنوك وتكون من ذلك « **الرأسمالية المالية** » التى تربعت على عرش السلطة محل الرأسمالية الصناعية التى سادت القرن الماضى . وابرز أن الرأسمالية فى هذه الظروف تصدر ـ الى جانب السلع ـ رأس المال . كما أن كل رأسمالية قومية تسارع فى التوسع الاستعمارى لتبنى امبراطورية ، حتى اصبحت سمة العصر هى بناء الامبراطوريات ، اى الحركة الامبريالية . ومن ثم كان الاسم الشهير الذى اطلقه لينين على الرأسمالية فى عصره : « الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية » .

٢ ـ كان لينين أول من درس بعمق « **النمو غير المتكافىء** » كقانون أساسى من قوانين التنمية الرأسمالية ، ففى داخل البلد الواحد لا تنمو كل قطاعات الاقتصاد القومى بطريقة متوازنة ومتناسقة ، بل يكون النمو السريع فى تلك القطاعات والمناطق التى تحقق أرباحا أعظم ، فى حين تتخلف قطاعات ومناطق اخرى ، ولكن اهمية القانون الكبرى تبرز فى المستوى الدولى . فمع انتشار النظام الرأسمالى فى العالم ، دون ثورة بورجوازية شاملة ، نجد تفاوتا شديدا فى مستوى النمو من دولة الى أخرى .

٣ ـ وقد رتب «لينين» على النمو غير المتكافىء نتيجة ثورية بالغة الخطورة . فقد كان « ماركس وانجلز » يريان أن الثورة الاشتراكية ستندلع فى نفس الفترة الزمنية فى كل الدول الرأسمالية . وكان هذا الرأى مبنيا على أن الرأسمالية فى عصرهما كانت فى غرب اوروبا وحدها ، وكانت تعيش فى ظروف حرية تجارة دولية تؤدى الى تقارب كبير فى درجة النمو وبالتالى فى ظروف الثورة . **اما « لينين » فقد استنتج من قانون النمو غير المتكافىء أن ظروف الثورة يمكن ان تنضج فى بلد معين قبل غيره من البلاد بوقت طويل ، ومن هنا كانت نظرية امكان قيام الثورة فى بلد واحد** التى ادعى « تروتسكى » بأنها تناقض الماركسية .

٤ ـ وفى ضوء هذا الفهم يصبح من المتعين تحليل الظروف الثورية فى كل بلد على حدة تحليلا وافيا . وهدف التحليل هنا هو الكشف عن وجود او عدم وجود « **وضع ثورى** » ، اى **مجموعه من الظروف الموضوعية تجعل قيام الثورة ممكنا** . فاذا تحقق توافر الوضع الثورى ، لابد لقيام الثورة بالفعل من مجموعة من **الظروف الذاتية** تتلخص فى قدرة الطبقة الثورية واستعدادها لقيادة حركة جماهيرية واسعة تبلغ من القوة ، حد اسقاط الحكم الرجعى واقامة سلطة ثورية . يقول « لينين » :

« ان الثورة مستحيلة فى نظر الماركسيين اذا لم يتوافر وضع ثورى ، بل انه ليس من الضرورى أن يقود كل وضع ثورى الى حدوث ثورة . فما هى ـ بصفة عامة ـ العوارض التى تدل على وجود وضع ثورى ؟ لا شك اننا لا نخطىء اذا ابرزنا العوارض الثلاثة التالية : ١ ـ حين يصبح من المستحيل على الطبقات الحاكمة أن تحافظ على حكمها دون اى تغيير ، حين توجد ازمه ـ فى شكل او آخر ـ فى صفوف الطبقة الحاكمة تفتح ثغرة فى صفوفها يندفع منها سخط الطبقات المقهورة . لانه لا يكفى لقيام الثورة عادة أن تكون الطبقات الدنيا « غير راغبة » فى ان تعيش على نفس الصورة القديمة ، بل يجب كذلك أن تكون الطبقات العليا « غير قادرة » على العيش بالصورة الماضية . ٢ ـ حين يزيد شقاء وحرمان الطبقات المقهورة عن المعتاد . ٣ ـ حين تؤدى الاسباب السابقة الى تعاظم نشاط الجماهير التى تخضع للنهب فى هدوء فى « اوقات السلم » ، والتى على العكس تخرج الى عمل تاريخى مستقل فى « ظروف القلاقل » تحت تأثير الازمة . بتأثير الطبقات العليا نفسها .

وبغير هذه التغيرات الموضوعية المستقلة عن ارادة الافراد والاحزاب والطبقات ، تكون الثورة كقاعدة عامة مستحيلة . ومجموع هذه التغيرات الموضوعية هو الذى يسمى « وضعا ثوريا » (١) .

وبالتطبيق على ذلك قال « لينين » فى ١٩١٧ بامكان قيام ونجاح الثورة فى روسيا القيصرية ، حيث تفاقمت التناقضات بين النظام القيصرى وبين

---

[1] لينين : الاعمال الكاملة ـ الجزء الحادى والعشرون . ص ٢١٤

البورجوازية ، بين العمال والرأسمالية ، وبين فقراء الفلاحين وكبار الملاك ، وبين الطبقة الحاكمة الروسية والقوميات المقهورة . وحين ازداد سخط الجماهير تحتوطأة ثلاثسنوات من حرب طاحنة، وغدا النظام القيصرى عاجزا عن الاستمرار فى الحكم بنفس الاسلوب . وفى الوقت ذاته تقدمت الطبقة العاملة بقيادة الحزب البلشفى لتقود حركة الجماهير :

لقد اطلت قليلا الوقوف عند هذه النقطة لانها بالغة الدلالة من حيث المنهج اللينينى . «فلينين» لم يتقيد بحرفية ما كتب « انجلز » عن الثورة العالمية ، ولكنه فى الوقت ذاته لم يقل بمراجعة الماركسية أو تجاوزها . وانما نفذ الى الاسباب التى نهضت خلف توقع مؤسس الماركسيه للثورة العالمية واكتشف انها لم تعد قائمة نتيجة لتغير الظروف . ثم حلل الظروف الجديدة ليحدد كيف يمكن ان تقع الثورة فى بلد واحد ، وبنى ذلك كله على الفهم العلمى للدافع الموضوعى والقوانين الموضوعية للثورة . نافيا نفيا قاطعا ان الثورة يمكن أن تقع لمجرد الرغبة فيها ، أو ان تصدر الى بلد لم تنضج ظروفها فيه .

٥ ـ ومن هنا كان اهتمام « لينين » العميق بظروف الثورة الموضوعية . وقد تمثل هذا الاهتمام بالجانب الموضوعى فى دراسته الرائعة لاوضاع روسيا القيصرية فى كتابه الشهير « **تطور الرأسمالية فى روسيا** » ، ثم متابعته الدقيقة لتحولات الاقتصادية والسياسية فى بلاده ، وتحليله المستفيض لكل القوى الاجتماعية ، والاحزاب السياسية . وبالذات لثورة ١٩٠٥ فى روسيا واسباب ونتائج اخفاقها . ان « لينين » لم يقنع بأى «تقنين» لافكار «ماركس» و «انجلز» ، كما يمكن ان تستخلص من مؤلفاتهما النظرية ،أو من تحليلهما للصراع الطبقى فى فرنسا والمانيا وانجلترا ، وانما نفذ الى اعماق واقع بلاده فى ضوء المنهج الماركسى فألم بها فى مجموعها وتفاصيلها ، وفى قوانين حركتها . حقا لم يكن « لينين » محدود الافق يقصر نظرته على حدود بلاده . بل انه لم يغفل لحظة واحدة وحدة الحركة الثورية فى العالم ، واهتم بمتابعة الحركات الثورية فى كل مكان . ويمكن ان نذكر على سبيل المثال ما كتبه عن ثورة ١٩١٢ فى **الصين وعن صن يات صن** . ولكنه اعطى اولوية دائما لمسئوليته الاساسية .. قضية الثورة فى روسيا القيصرية .

٦ ـ وفى جانب الظروف الذاتية ، عنى « لينين » بابراز **دور النظرية فى نجاح العمل الثورى** . لقد وقف بشدة ضد كل اتجاه للاعتماد على تلقائية الجماهير . لان لينين ـ مثله مثل ماركس ـ لا يجعل من الحتمية التاريخية قدرية تحدث مفعولها

البوند :

اختصار لاسم « الاتحاد العام للعمال اليهود فى ليتوانيا وبولونيا وروسيا » .

تاسس فى ١٨٩٧ بوساطة الجماعات الاشتراكية الديمقراطية اليهودية ، وكان يضم فى الاساس عناصر من الحرفيين [وليس البروليتاريين] .

وعندما عقد حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى مؤتمره الاول فى ١٨٩٨ انضم البوند الى الحزب بشرط ان تبقى له استقلالية ذاتية فيما يتعلق بالمسائل التى تمس العمال اليهود .

وقد لعب البوند باستمرار دورا انفصاليا وعنصريا فى حركة العمال الروسية ، واتخذ على الدوام مواقف انتهازية ، الامر الذى ادى بالمؤتمر الثانى لحزب العمال الاشتراكى الروسى الى رفض الاعتراف بالبوند كممثل للبروليتاريا اليهودية ، وانسحب البوند من الحزب ، لكنه عاد للانضمام اليه على اساس قرارات المؤتمر الرابع .

وفى داخل الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى ، كان البونديون على الدوام جزءا من الجناح الانتهازى وايدوا المنشفيك والاقتصاديين .

وعندما رفع لينين شعار « حق الامم فى تقرير المصير » ، عارضه البونديون بشعار « الاستقلال الثقافى الذاتى » ، وأثناء فترة الردة الستوليبينية كان البونديون عنصرا نشطا فى محاولات تصفية الحزب ، ثم عنصرا نشطا فى مجموعة تروتسكى « كتلة اغسطس » .

واثناء هروب التدخل والحرب الاهلية انضم البوند كليه الى القوى المعادية للثورة .

وفى مارس ١٩٢١ أعلن البوند حل نفسه.

فى غيبة من وعى البشر ونضالهم . والضرورة التاريخية للاشتراكية تظل مجرد « ضرورة » حتى يحولها نضال الجماهير الواعى الى حقيقة واقعة . ولا يتحقق الوعى المنشود الا بنظرية علمية . وابتداء من نفس المفهوم تصدى لينين لفضح وتفنيد كل محاولة لغل السلاح النظرى للجماهير عن طريق ابتكار نظريات جديدة ، او مراجعة الماركسية ، او تطبيقها تطبيقا جامدا . لقد أثبت « لينين » ان الرأسمالية فى روسيا ـ نتيجة لتطور الرأسمالية العالمية ولوضعها الخاص ـ لن تصفى الاقطاع وتبنى مجتمعا رأسماليا « عصريا » . وأن الطبقة العاملة هى وحدها القادرة على مواجهة تناقضات روسيا القيصرية . ومن ثم لم يقنع بانتظار نتائج ثورة فبراير ١٩١٧ البورجوازية ، وبدأ منذ عودته فى ابريل الاعداد لاستيلاء الطبقة العاملة على السلطة . كذلك بين خطأ «الشعبيين» الذين كانوا يزعمون ان سيادة الاوضاع شبه الاقطاعية فى

روسيا يجعل للفلاحين الوزن الأساسى فى العمل الثورى ، وبما ان الفلاحين لا يتبنون الاشتراكية فلا داعى للحديث عنها . واوضح ان كل ثورة اشتراكية لابد لنجاحها من تحقيق التحالف بين العمال والفلاحين ، وان مفتاح الثورة فى روسيا هو اجتذاب فقراء الريف الى حلف وثيق مع العمال ، فقراء المدينة . وفى نفس الوقت تصدى للنزعات الشوفينية والعنصرية التى كان يروج لها بين القوميات والجماعات المضطهدة فى ظل القيصرية مبينا ارتباط التحرر القومى بالتحرر الاجتماعى ، واهمية وحدة نضال كل المقهورين ضد النظام القيصرى مع التسليم الكامل بحق كل شعب فى تقرير مصيره بما فى ذلك الانفصال . وكان صراعه الاساسى فى هذا الشأن ضد جماعة « **البوند** » اليهودية التى غذت الحركة الصهيونية ووفرت لاسرائيل فيما بعد الجيل الاول من قادتها : وايزمان وبن جوريون وشرتوك وجولدا مائير .

٧ ـ ولكن لينين كماركس كان يدرك اهمية **الربط الوثيق بين النظرية الثورية والعمل الثورى** . فلا يكفى الدعوة للفكر الثورى كفلسفة او نظرية ، وانما المهم هو تطبيق هذا الفكر يوميا على مشكلات الساعة وتحويله الى شعارات محددة يتحرك الجماهير فى ظلها . ومن هنا كانت وقفته ضد « الماركسيين القانونيين » الذين كانوا يقنعون بالكتابة عن الماركسية فى معزل كامل عن حركة الجماهير . ان ماركس لم يتصور نظرية مجردة وكان شعاره « **لا يكفى أن نفهم العالم بل لابد أن نغيره** » . وترديد الافكار بعيدا عن العمل الثورى يفرغها من كل مضمون ويعزلها عن مصدر التجدد والتطور وهو نضال الجماهير . انه موقف تعال عن الجماهير يريد أن يعلمها ولا يرغب فى أن يتعلم منها . تقول « ناديا كروبتسكايا » قرينة لينين :

« من خلال العمل بين عمال سان بطرسبورج والحديث معهم والانتباه الى كل ما يقولون ، اكتسب لينين فهما عميقا لفكره ماركس الكبرى عن الطبقة العاملة كطليعة لكل الشعب العامل ولكل المضطهدين ، وأنها لن تنتصر الا اذا كانت قائدا لكل الجماهير الكادحة » .

٨ ـ على أن ابرز ما خلف « لينين » من فكر يتعلق بنضال الجماهير هو **نظرية الحزب** . فالتحام النظرية الثورية بالعمل الثورى لا يتحقق الا بشكل منظم ، من خلال تنظيم . ان « لينين » لايؤمن بالطبقة العاملة ايمانا ميتافيزيقيا يجعل من كل عامل رسولا لاهم له الا تغيير وجه البشرية . ان الطبقة العاملة تعيش فى ظل القهر الطبقى فى مجتمع تسوده ايديولوجية المستغلين وقيمهم الاجتماعية ، محرومة من الثقافة ، تلتهم السعى وراء لقمة العيش جل وقتها . ومن هنا كان الحاح « ماركس » فى التأكيد على اهمية دور « **الطليعة** » . فبين صفوف الطبقة العاملة توجد اقلية اكثر نضاليه واستعدادا للتضحية ، وأعظم تقبلا للفكر الثورى ينضم اليها افراد من طبقات أخرى نتيجة للاقتناع عقليا بقضية الاشتراكية ، فتتشكل طليعه للعمل الثورى . وأوضح « لينين » ان الشكل التنظيمى لهذه الطليعة هو « **الحزب الثورى** » ، وبين انه حزب من نوع جديد يختلف عن الاحزاب البورجوازية والاحزاب الاشتراكية التى تحاكيها ، من حيث ان تلك منتديات للمناقشة والصراع الانتخابى والعمل البرلمانى ، فى حين أن الحزب الثورى كتيبة مناضلة ومنظمة تخوض حربا لاهوادة فيها من أجل تصفية الاستغلال . وظروف ذلك النضال هى التى تفرض الانضباط الحديدى والالتزام الحزبى وممارسة الديموقراطية فى الداخل ، مع الحفاظ على وحدة كلمة الحزب لدى الجماهير .

عالمنا المعاصر

والان ، اين نحن من العالم الذى عرفه « لينين » فدرسه بكل ذلك العمق ، وأبدع فى النظرية الثورية أيما ابداع ؟ . لقد كتب « لينين » كل مؤلفاته الاساسية قبل خمسين عاما . والقول بأن صورة العالم لم تتغير خلال نصف القرن الذى مضى منذ انتصار الثورة فى روسيا تنكر لفكر « لينين » نفسه وانكار لجوهر الماركسية الذى يتحدد فى القول بأن التغير المستمر هو قانون كل شىء فى الطبيعة والمجتمع ، وأن المهم بالدقة هو فهم جدلية هذا التغيير . فلنحاول اذن رسم أهم معالم صورة العالم فى هذا النصف الثانى من القرن العشرين . ولنقل بادىء ذى بدء ان « الثورة العلمية والتكنولوجية ليست السمة الجوهرية للعصر . فالتقدم العلمى والتكنولوجى لا يحدث فى فراغ وانما هو دائما « تقدم انسانى » أى من صنع البشر . وهؤلاء البشر يعيشون فى مجتمعات ومن ثم فأن اوضاع المجتمع هى التى تحكم ابتداء مظاهر التقدم الفكرى والمادى . حقا ان تلك الظواهر تؤثر بدورها فى حياة المجتمعات . فالعلاقة هنا جدلية كما يقول الماركسيون . ولكن لكى لا تصبح الحركة الجدلية حلقة مفرغة لابد دائما من التمييز فى كل لحظة بين ما هو فعل وما هو رد فعل :

١ ـ ان الحقيقة العظمى لعصرنا **هى انتشار الاشتراكية** . فحتى سنة ١٩١٧ كانت الاشتراكية مثلا أعلى تحلم به الجماهير المحرومة ، وهدفا تسعى اليه فئات محدودة منها ، ونظرية تحتمل النقاش . وفى اكتوبر سنة ١٩١٧ فتح البلاشفة بقيادة « لينين » فصلا جديدا فى تاريخ البشرية

حين أقاموا مجتمعا لا يعرف الاستغلال على سدس الكرة الارضية · خرجت البشرية يومها - طبقا للصيغة التى استخدمها انجلز قبل ذلك باربعين عاما - من عصر ما قبل التاريخ الى عصر التاريخ . لقد بدأ الانسان يأخذ مصيره بيده ويشكل مستقبله عن وعى ·

وكان الفضل الاعظم للحزب السوفيتى ، هو تحويل هذا النصر التاريخى الى صيغه دائمة وحماية الثورة من الحرب الاهلية التى شنتها عليها الرجعية وحرب التدخل التى نظمتها الدول الاستعمارية ، وحرب الابادة التى اعلنتها الفاشية الهتلرية ، وبناء دولة عظمى للاشتراكية تقف من كبرى دول الاستعمار ، وهى الولايات المتحدة الامريكية موقف الند . وبعد أن انتصرت الاشتراكية فى دول اوروبا الشرقية ، كان نصرها الاعظم فى الصين حين انضم خمس البشرية الى مجموعة الدول الاشتراكية · وانتشر الفكر الاشتراكى فى مختلف بقاع المعمورة · ولم يعد المثل الاعلى الرأسمالى يستهوى الافئدة وحلت ثورة ١٩١٧ الروسية محل ثورة ١٧٨٩ الفرنسية كمصدر الاشعاع للامل فى مستقبل افضل ·

٢ - والسمة الثانية لعصرنا هى **تعاظم حركة التحرر الوطنى** التى اجتذب بها أرجاء آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية · وليست تلك مجرد ظاهرة كمية . مجرد زيادة فى عدد ثورات التحرر ، بل انها تغير كيفى . فمن حيث الاتساع شملت حركة التحرر كل قطر ، ونجحت بالفعل فى تصفية الاستعمار القديم فيما خلا عددا محدودا من الجيوب ، ومن حيث المحتوى لم تعد الجماهير تقنع بمجرد الاستقلال السياسى ، وانما غدت تستهدف تحقيق انبعاث قومى شامل وتطور سريع، يمكنها من أن تعيش على قدم المساواة مع اوروبا وأمريكا الشمالية ، أخذت الشعوب تتطلع الى الاشتراكية . ومن حيث القيادة لم تعد الرأسمالية تنفرد بقيادة الحركة الوطنية ، بل برزت قيادات اعمق وطنية وأكثر ثورية ذات أصول شعبية · وفى عدد من البلاد المتحررة حديثا تبينت تلك القيادات ان طريق الرأسمالية طريق مسدود، فتبنى الاشتراكية عدد كبير من القيادات والاحزاب وتحقق هنا وهناك التحام بين الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية . ان آفاق الاشتراكية هى وحدها التى تضىء اليوم أمام شعوب العالم الثالث ·

٣ - وامام هذا الخطر المزدوج حدثت **تطورات عميقة فى الرأسمالية العالمية** · فهى من ناحية ، ابتدعت وطورت أساليب الاستعمار الجديد لتتمكن من الاستمرار فى استغلال شعوب العالم الثالث اقتصاديا ، دون ان تحتل بلادها او تحكمها حكما مباشرا · وهى من ناحية ثانية ، تعنى بالتطور التكنولوجى السريع لترفع انتاجية العمل بسرعة تعوضها عن خسائرها فى المستعمرات وعن ما اضطرها الصراع الطبقى لتقديمه الى الطبقة العاملة من تنازلات · وهى من ناحية ثالثة ، فى ظل هذا التوسع الانتاجى وتهديد أسواقها السابقة تعمل على زيادة الاستهلاك الداخلى حيث يحقق لها الارباح . وهكذا ساد فى الغرب مايسمى «مجتمع الاستهلاك» وهى من ناحية **رابعة** تعتمد على الدولة اعتمادا متزايدا لتفادى الازمات ، لانها تدرك الخطر المميت الذى تعنيه بالنسبة لها أزمة مثل أزمة ١٩٢٩ - ١٩٣٢ ، ومن هنا اصبح طابعها الاساسى اليوم هو « رأسمالية الدولة الاحتكارية » . وهى اخيرا تحاول التغلب على التناقضات القومية عن طريق الاحتكارات العالمية التى تسمى « شركات متعددة القوميات » ، وعن طريق « التكامل الاقليمى » كما فى حالة « السوق الاوروبية المشتركة »

وقد ادت كل تلك التطورات وماتفرع عنها الى ظهور عدد كبير من المشكلات أمام الحركة الثورية فى مختلف أجزاء العالم · وازاء تلك المشكلات اختلفت الآراء وتباينت المواقف ، ومن ثم كان الحديث عن أزمة الماركسية :

١ - فبعد ان استقر النظام الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى وحقق منجزاته الهائلة وتم بناء الاشتراكية فى دول صناعية متقدمة مثل تشيكوسلوفاكيا أو المانيا الديموقراطية ، طرحت قضية أساليب التخطيط والادارة الاقتصادية فى الدول الصناعية المتطورة ، وكذلك أسلوب الحكم، او بعبارة اخرى ماأصطلح على تسميته «قضية الاصلاح الاقتصادى ، قضية الديموقراطية الاشتراكية » . ولاشك فى خطأ الاتجاه الذى ظهر فى بعض الدول الاشتراكية الاوروبية والذى يرى ان حل مشكلات الاقتصاد المتقدم يكمن فى الرجوع الى « آليات السوق » انه من العبث ان يتحدث اشتراكيون عن أهمية السوق كمنظم للحياة الاقتصادية ، فى الوقت الذى اصبح الرأسماليون يدركون ان السوق يقود الى كوارث لا سبيل الى دفعها الا بتكاتف الاحتكارات الكبرى مع الدولة ، فى نوع من التخطيط او على الاقل « السياسة الاقتصادية » كذلك لا يمكن ان يكمن تطوير الديموقراطية الاشتراكية فى الانتكاس الى أشكال تحاكى الديموقراطية الغربية التى يضيق بها أبناؤها ويتمردون عليها · ان حل هذه القضية المعقدة لا يمكن تلمسه بحال فى « عودة » من نوع ما الى ماقبل الاشتراكية ، فالتماس حلول الحاضر والمستقبل فى تجربة الماضى هو الرجعية بعينها .

ولكن يجب ان نسلم كذلك بحقيقة القضايا المطروحة وانها ليست مفتعلة افتعالا على يد اعداء الاشتراكية · فأساليب التخطيط والادارة الاقتصادية فى المجتمع الاشتراكى هى علاقات الانتاج · وهى بالتالى محكومة فى التحليل الاخير بتطور قوى الانتاج · وقد تطورت قوى الانتاج فى الاتحاد السوفيتى تطورا هائلا خلال الاربعين عاما الماضية · ومن ثم فان الماركسية نفسها تقول بضرورة تطوير علاقات الانتاج · اما أسلوب الحكم فهو البنيان العلوى للمجتمع المحكوم فى التحليل الاخير ببنائه الاساسى ، وهو اسلوب الانتاج (قوى الانتاج وعلاقات الانتاج) ومن ثم لا يكون هناك أية هرطقة فى النقاش حول تطوير الديموقراطية الاشتراكية ، وفى الحالين تبقى القضية الاساسية هى محتوى التطوير وأشكاله واساليبه ، والى جانب هاتين المشكلتين الرئيسيتين ثمة مشكلات اخرى فى هذا المجتمع الاشتراكى المتطور تحتاج الى تحليل وتأصيل وعلاج : مشكلة الشباب ، الاسرة والعلاقة بين الزوجين ، القيم الجمالية واصول الابداع الفنى ··· الخ ·

٢ ــ وأدى انتشار الاشتراكية فى عدة دول الى ظهور مشكلات جديدة ، فلينين قد وضع نظرية بناء **الاشتراكية فى دولة واحدة** ، ولكنه لم يتعرض للعلاقات بين مجموعة من الدول الاشتراكية · ذلك انه كان يعالج مشاكل الثورة فى عصره ولا يتنبأ بمشكلات المستقبل · وهذه العلاقات تصطدم أولا **بالتفاوت فى درجات النمو بين الدول الاشتراكية**. فالاشتراكية حين تصبح نظاما عالميا ترث أوضاعا خلفتها الرأسمالية ، من أبرزها ظاهرة النمو غير المتكافىء · والى جانب ذلك لا يوجد أساس نظرى واضح للمبادلات الاقتصادية بين الدول الاشتراكية · **فالسوق الاشتراكية العالمية يتعذر اخضاعها للتخطيط** حيث لا توجد سلطة فوق الدول الاعضاء فيها ، تضع لها جميعا خطة شاملة · وهى لا يمكن ان تسير على قواعد السوق الرأسمالية بشكل مطلق ، والا غدت امتدادا لها وفقدت مدلولها الاشتراكى واصبحت عامل تعميق للنمو غير المتكافىء · وأخيرا تثور **المشكلة القومية** فى مجال العلاقات الاقتصادية والسياسية .. لقد كان لينين عبقريا فى حله لمشكلة القوميات داخل الدولة الواحدة ذات الشكل الاتحادى · ولكنه لم يتعرض لمشكلة القوميات التى تستظل بالاشتراكية ، ولكن فى شكل دول مستقلة تماما تتفاوت من حيث الحجم والامكانيات الاقتصادية والقوة العسكرية والنفوذ السياسى · وطبيعى ان تنشأ عن تلك الاوضاع تناقضات فى داخل المعسكر الاشتراكى ·

وطبيعى أن تحاول الامبريالية استغلال تلك التناقضات ، ولا يكفى فى مواجهتها النوايا الحسنة ولا الحلول الجزئية ، بل لابد من تحليل عميق ونظرية شاملة كما كان يفعل « لينين » ·

٣ ــ **وترتب على تعاظم حركة التحرر الوطنى واستهدافها التغيير الاجتماعى ان اتجه نحو الاشتراكية قوى اجتماعية وسياسية واسعة من الفلاحين والمثقفين ، تفوق فى بلاد كثيرة قوى الطبقة العاملة الناشئة المحدودة العدد القليلة الخبرة · وطرح هذا الوضع مشكلات جديدة تتعلق بالدور الثورى للبورجوازية الصغيرة** ، وبطبيعة المجتمع الذى تؤول السلطة فيه الى قيادة أو حزب ثورى بورجوازى صغير ، أو تجمع جماهيرى عريض ذو قيادة اشتراكية ، وبضمانات تحقيق التحول الاشتراكى · ويبرز هنا على نوع الخصوص **طبيعة التنظيم السياسى فى مثل هذه** الظروف وكيف يمكن ان يكون طليعيا وان يحقق وحدة كل المناضلين من أجل الاشتراكية فى نفس الوقت ، وماهى الحدود الفاصلة بين الحزب الطليعى والتجمع الشعبى العريض ، كما يثور التساؤل حول طبيعة الدولة فى مثل تلك الظروف ·· الخ · كما ان تطور حركة التحرر قد فضح أسلوب الاستعمار فى تفتيت البلاد التى خضعت له · ومن ثم طرحت **قضية القوميات المزقة** وأسلوب توحيدها ، كما طرحت قضية تجمع الدول التى لا تعبر كل منها عن واقع قومى متميز (كما هى الحال بالنسبة لعدد من الدول الافريقية) وأشكال هذا التجمع ، وأخيرا ظهرت **قضية الجبهة العالمية المعادية للامبريالية** وعناصر تكوينها وامكانيات خروجها الى حيز النضال الفعلى .. لقد وضع « لينين » صيغة لتعاون الاحزاب الشيوعية فى ظل تنظيم أممى له سلطات مركزية ازاء أعضائه · ثم تخلت الاحزاب الشيوعية عن ذلك التنظيم فى سنة ١٩٤٣ مقدرة انه لم يعد يعبر عن ضرورات العصر ، والان يوجد الى جوار الاحزاب الشيوعية ، أحزاب وحركات ثورية كثيرة بعضها فى السلطة ، وبعضها يناضل من اجل الوصول اليها . وليس من المتصور بالتالى ان يضم كل ذلك تنظيم مركزى واحد · وعليه فقضية وحدة هذه القوى جميعا ــ بالرغم من اختلافها فى نقاط كثيرة ــ مطروحة فى انتظار الحل ·

٤ ــ ولم تفلح الرأسمالية الاحتكارية بالرغم من « الثورة العلمية والتكنولوجية » وبالرغم من « مجتمع الاستهلاك » ، فى ان تزين وجهها للجماهير وتكسب ثقتها · وليس أدل على ذلك من هبة الشباب فى كل الدول الرأسمالية الكبرى للتعبير عن ادانته للمجتمع الرأسمالى وكثرة لفتاته وتطلعه الى مجتمع أفضل · ولكن التطور الاخير

لرأسمالية الدولة الاحتكارية يطرح عددا لايستهان به من القضايا · فهناك قضية **الطبقات الوسطى** التى يتزايد عدد أعضائها بفضل التقدم التكنولوجى والتى بدأت تحس بالاستغلال الواقع عليها من الاحتكاريين فأخذت تتخلى عن الولاء المطلق للرأسمالية وتنجذب الى طريق البحث عن مجتمع أفضل · وهناك **الشباب (والطلبة بنوع خاص)** الذين كثيرا مايضيقون بأساليب النضال التقليدية من اضرابات وانتخابات ومظاهرات وتنظيم حزبى ويريدون العمل المباشر والسريع · وهناك التطور التكنولوجى وأثره فى **زيادة عدد الكادحين الذهنيين** بين صفوف المستغلين .وهناك قضية **الانتقال السلمى للاشتراكية** وكيف يمكن ان يتميز عن الاجراءات الاصلاحية أو « التحول التدريجى» الذى طالما تغنت به الاحزاب الاشتراكية اليمينية وهناك أخيرا الاستغلال الخبيث والبشع الذى تفرضه الدول الرأسمالية الكبرى على شعوب العالم الثالث بحكم قوتها الاقتصادية ذاتها ، وكيف يمكن ان تشترك شعوب البلدان الرأسمالية الكبرى اشتراكا فعالا فى **النضال ضد الاستعمار الجديد** ، كما شاركت بالامس فى النضال ضد الاستعمار القديم ·

وبعد ، فتلك بعض من القضايا الاساسية التى يثيرها العمل الثورى فى عصرنا الراهن · وعبثا نحاول ان نجد لها « حلا جاهزا » فيما كتب لينين فمثل هذا المسعى يتناقض اساسا مع جوهر اللينينية ، كذلك لايجدى نفعا ان ننحى باللائمة على هذا او ذاك من دعاة الفكر الماركسى · ان مشكلات عصرنا ـ بحكم التقدم ذاته ـ اصبحت من التعقيد بحيث يستحيل ان يقدم لها الحلول المرضية فرد مهما تكن عبقريته ، كما ان قادة الاحزاب الثورية الحاكمة تستغرقهم بالضرورة مهام الحكم عن ان يتفرغوا للدراسة والتحليل . بل ان قيادات الاحزاب الثورية الكبيرة التى لم تصل الى الحكم بعد ، تشغلها ايضا قضايا النضال اليومى ، ولا تملك ان تهمل حياة الجماهير اليومية لتنخرط فى جهد نظرى خالص · ان « لينين » قد كتب مؤلفاته الاساسية فى سنوات النفى · ففى **سيبريا** (فبراير سنة ١٨٩٧ ـ يناير سنة ١٩٠٠) ألف « تطور الرأسمالية فى روسيا » · وبين **سويسرا وألمانيا وانجلترا** (يولية ١٩٠٠ ـ نوفمبر سنة ١٩٠٥) كتب « ماالعمل ؟» و « تكتيكان » ، وفى **فترة النفى الطويلة** (يناير سنة ١٩٠٨ ابريل سنة ١٩١٧) ألف « المادية والنقد التجريبى » و « المذكرات الفلسفية » و « الامبريالية » . وليس معنى ذلك أن لينين كان « متفرغا للجهد النظرى » كأستاذ فى جامعة ، ولو كان كذلك لما انجز شيئا . ولكنه كمناضل وثيق الصلة بنضال شعبه وحزبه والحركة الثورية بصفة عامة ، توافرت له ظروف أعطته الوقت الكافى للتحليل والتأليف ، فضلا عن اكتساب الثقافة الواسعة واتقانه خمس لغات أجنبية ·

يقول لينين :

« نحن لا ننظر الى النظرية الماركسية كشىء استكمل لا يمكن المساس به ، على العكس نحن واثقون انها لم تفعل أكثر من وضع حجر الاساس لذلك العلم الثورى الذى يتعين على الاشتراكيين تطويرها فى كل الاتجاهات اذا ارادوا ان يواكبوا مسيرة الحياة (٢) ·

وهذه الدعوة هى من اهم مايمكن ان ينصت اليه الماركسيون فى احتفالهم بمرور مائة عام على مولد فيلاديمير ايليتش ، مؤسس الدولة الاشتراكية الاولى ، ولكن لكى يسيروا على نهج اللينينية يجب الا نفهم هذه الدعوة على أنها رخصة لكل مثقف ـ أيا كان تفهمه للماركسية ـ لكى يبنى ماشاء من « نظريات » او لكل جماعة أن تصيغ لنفسها « ماركسية » ترضيها .وانما معنى دعوة « لينين » هو العمل الجاد الجماعى المنظم من جانب الماركسيين المتخصصين فى مختلف العلوم الاجتماعية لتحديد معالم عصرنا ، التحديد العميق والشامل الذى يمكن القيادات السياسية من تحليلها واقتراح الحلول النظرية لقضايا الثورة المعاصرة · لقد تخلف البحث العلمى الماركسى فى علوم الاقتصاد والاجتماع والانثولوجيا والانتروبولوجيا وعلم النفس وعلم السياسة.الخ خلال السنوات الخمس عشرة الاخيرة من حكم ستالين ، ثم تجدد خلال السنوات العشر الماضية كجهد متفرق · وفى اعتقادى ان أعظم تحية يمكن ان تقدم للينين فى ذكراه ، هى ادراك اهمية هذه الدراسات لتقدم الثورة والتغلب على التناقضات فى صفوفها ، واعطاؤها بالتالى كل ماتستحق من رعاية وتشجيع وتخطيط ، تمهيدا لتحليل نظرى وسياسى شامل .

ان تمجيد « لينين » يجب الا ينحدر الى نوع من عبادة الفرد ، واتباع اللينينية لايعنى المحاكاة الآلية لما قدمته من حلول ثورية لصلاحيتها حدودها التاريخية · ولكن منهج القائد العظيم سيظل ابدا نبراسا يضىء طريق كل الثوريين ·

---

[٢] لينين ـ الاعمال الكاملة ، الجزء الثانى ص٣٣٦ [الطبعة الانجليزية] .